

التابعي كلمة تفيد الاتباع صارت وصفا لمن لقي صحابة رسول الله ﷺ و اتبع نهجهم و ما كانوا عليه. و الصحابي كلمة تفيد الصحبة صارت و صفا لمن لقي رسول الله ﷺ و اتبع هداه.

كان علقمة أحد كبار فقهاء التابعين. و كان عبد الله بن عمر أحد كبار فقهاء الصحابة. يأتي اسم علقمة كثيرا في أسانيد الأحاديث التي رواها أبو حنيفة الذي هو أيضا فقيه تابعي. و عندما قارن أبو حنيفة بين فقه علقمة و فقه عبد الله بن عمر، قال:

" لولا فضل الصحبة لقلت علقمة أفقه من ابن عمر "

بالنسبة لأبي حنيفة - كما هو الشأن بالنسبة لغيره من فقهاء أهل السنة و الجماعة - الصحبة منزلة لا يدانيها أي تفقه مهما كان أمره. إذ الاعتراف بفضل الصحبة الذي ذكره أبو حنيفة لم يكن مجرد ولاء عاطفي نحو الصحابة، أو مجرد رد فعل تجاه ظروف سياسية تاريخية. بل هو نتيجة فهم دقيق لمبادئ إسلامية راسخة. كانت مبادئ العقيدة الإسلامية واضحة عندما شرع أبو حنيفة في دراسة علوم الدين، إذ كانت مبادئ أهل السنة و الجماعة راسخة في أفهام الأمة و كان تعظيم الوحي أحد هذه المبادئ. سننتقل الآن للحديث عن مبادئ لا زال شائعا عند عموم الأمة أو ما يشار إليه أحيانا بالإسلام الشعبي.

كما هو معروف "الحديث" هو كل ما روي عن النبي ﷺ. و أحد أشهر الأحاديث و أكثرها تداولاً بين المسلمين "حديث جبريل"¹. إذ المسلمون على إختلاف مشاربهم: الملتزمون بمذهب فقهي و من لا يلتزم، و كذا هؤلاء الذين يصفون أنفسهم بأهل إسلام معاصريتماشى مع الحداثة في هذا العالم المشوب بالحروب، كلهم يحبون حديث جبريل و يعتزّون به. البعض يذكر الحديث لأنه يحثّ على الإحسان، و البعض يتلوه من أعلى منابر المساجد، و آخرون يرون فيه تلخيصا للإسلام بأكمله. كتب علماء الحديث كتبا مستفيضة في شرح هذا الحديث البليغ و لا يجراً مسلم على الطعن في صحّة هذا الحديث الذي يخاطب عقله و روحه و صميم تدينه. بل غير المسلمين المتعاطفون مع الإسلام تجدهم يعجبون بهذا الحديث النبوي.

الصحابي الجليل أبو هريرة ؓ أسلم ثلاث سنوات فقط قبل وفاة رسول الله ﷺ. و أبو هريرة ؓ هو أحد الصحابة الذين رواوا حديث جبريل. إذن لا بدّ أن الكثير من الصحابة من أهل السابقة الأولى قد شهدوا ما وقع في هذا الحديث. و لهذا فالحديث معروف عند عموم الأمة.

¹ تجد المتن الكامل لحديث جبريل في نهاية هذه المقالة.

يؤمن أهل السنة و الجماعة أن وحي التبليغ يوحى إلى الأنبياء فقط {2} .و لا ينزل وحي التبليغ على غير الأنبياء. يؤمن أهل السنة و الجماعة أيضا أن الله يبعث الملائكة ليوصلوا كلامه و أمره. و غير الأنبياء لا يمكن أن ينزل عليهم وحي التبليغ لعجزهم عن تلقي ذلك المستوى العالي من الخطاب و المنطق. إذ لا يتوفر لغير الأنبياء عدة تلقي الوحي الذي المراد منه تبليغ الناس من أجل نجاتهم في الآخرة. فالتبليغ إذن هو دور الأنبياء أولا و ليس غير الأنبياء. لذلك و حتى يتسنى لغير الأنبياء أن يقوموا بالتبليغ، لابد أن يحضروا على الأقل للتلقي الافتراضي لوحي التبليغ.

يأتي الوحي من الله عز و جل و ينزله إلى عالم الملائكة الذين يقومون بالنزول به . هؤلاء الملائكة لا يمكن لغير الأنبياء أن يرونهم {3} . و جبريل هو الملك المكلف بالذهاب بالوحي إلى جميع الرسل. و لقد ربي النبي الأمي محمد ﷺ نفوس الصحابة و أرواحهم تربية حكيمة جعلتهم مستعدين لحمل أعباء التبليغ. فمن الله على الصحابة بأن بعث إليهم جبريل ﷺ و الرسول ﷺ لا يزال معهم. نعم، رأى الصحابة جبريل بأعينهم و سمع الصحابة جبريل بأذانهم. سأل الرسول ﷺ عمر ﷺ و قد همّ باللاحق بالرجل: " يا عمر، أتدري من السائل؟"، فلما أجاب عمر ﷺ: "الله ورسوله أعلم"، قال النبي ﷺ: " فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم". كانت صحبة النبي ﷺ من البركة بمكان أنها جعلت رحمة الله تنزل في صورة جبريل يزور الصحابة و يعلمهم ما علم النبي ﷺ. فها هي صحبة النبي ﷺ تحول أناسا عاديين إلى رجال من نوع خاص، رجال من عليهم بمشاهدة و سماع ملك مقرب، جبريل ﷺ .

بُعِد ذلك، و أثناء حجة الوداع، أمر النبي ﷺ كل صحابي بتجشم أعباء التبليغ عنه قائلا: "بلغوا عني و لو آية" {4}. بفضل الصحبة، الآن الصحابة مستعدون فعلا لحمل أعباء التبليغ إلى غيرهم من الناس.

رغم أن الحديث النبوي هو ما روي عن الرسول ﷺ ، فإن علماء المسلمين سموا هذا الحديث "حديث جبريل" مظهرين بذلك فقها عظيما. ذلك أن هذا الحديث لم يكن حول ما رواه الصحابة عن النبي ﷺ ، و إنما كان حول ما رواه الصحابة عن جبريل ﷺ . معجزة الرسول ﷺ أنه ألقى بظلال نبوته على قلوب صحابته فأورثهم بعضا من معالم

² ما أوحى إلى أم موسى و إلى مريم عليهما السلام لم يكن وحيا للتبليغ، بل كان على العكس وحيا مستورا عن الناس ما أمرتا بإشاعته .

³ قد أشرنا إلى شرح واقعة مشاهدة مريم لجبريل عليهما السلام.

⁴ معنى آية هنا لا يقتصر على القرآن بل يتعداه إلى الحديث أيضا.

النبوة ذاتها. فلا عجب إذن أن أعطاهم أبو حنيفة، و غيره من ورثة الصحابة، مقام علم يفوق كل تفقه. إذا كنا نحب حديث جبريل، فعلينا أن نتبع هذا السبيل.

حديث جبريل

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم ، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ، وقال : " يا محمد أخبرني عن الإسلام " ، فقال له : " الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا " ، قال : " صدقت " ، فعجبنا له يسأله ويصدقه ، قال : " أخبرني عن الإيمان " قال : " أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره " ، قال : " صدقت " ، قال : " فأخبرني عن الإحسان " ، قال : " أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك " ، قال : " فأخبرني عن الساعة " ، قال : " ما المسؤول بأعلم من السائل " ، قال : " فأخبرني عن أماراتها " ، قال : " أن تلد الأمة ربثها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء ، يتطاولون في البنيان " ثم انطلق فنبث مليا ، ثم قال " يا عمر ، أتدري من السائل؟ " ، قلت : " الله ورسوله أعلم " ، قال : " فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم " .